

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الشعراء

سورة الشعراء سورة مكية، سوى آيات أربع في آخرها، فهي مدنية.
وهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿طَسَّرَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

و﴿طَسَّرَ﴾: هي من الحروف المقطعة التي بُدئت بها أوائل بعض السور؛ لفتًا
لأنظار المشركين، وجذبًا لاهتمامهم، حتى يسمعوا القرآن فيؤمنوا، أو تلزمهم الحجة،
التي كانوا عن سماع دليلها يعرضون.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ دلائل القرآن ﴿الْمُبِينِ﴾
الواضح في وحدانية الله وقدرته.
ثم يخاطب الله رسوله قائلاً:

﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ﴾ قاتل ﴿نَفْسِكَ﴾ غمًا عليهم، أي: من أجل ﴿إِلَّا يَكُونُوا﴾
﴿مُؤْمِنِينَ﴾، يعني لعل حرصك على إيمانهم: يؤدي إلى أن تقتل نفسك حسرة عليهم يا
محمد، لذا أشفق على نفسك.

فنحن: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ مخوفة لهم، تلجؤهم إلى الإيمان، مثل أن نرفع الجبل فوق رؤسهم، كما حدث لبني إسرائيل، أو آية آية أخرى ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا﴾ من غرابتها عليهم، وخوفهم منها ﴿خَضَعِينَ﴾ أي: ينقادون فيؤمنون. ولكننا لم نفعل ذلك، حتى لا يكون إيمانهم قهريًا، ونحن لا نريد من أحد إلا أن يكون حرًا في اختياره لما يؤمن به ويعتقده.

وذلك: ليكون ثوابنا وعقابنا على اختياره الحر.

وهؤلاء مع قدرة الله تعالى على أن يجعلهم مؤمنين، رغمًا عنهم، إلا أنه سبحانه أنزل لهم القرآن، ويذكرهم بما فيه حالًا بعد حال، لكن!!

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾﴾

أي: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ﴾ من القرآن، دال على توحيده وقدرته، وهو منزل ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ سبحانه ﴿مُحَدَّثٍ﴾ ينزل عليهم حالًا بعد حال، في كل حادثة، يدعوهم إلى الإيمان ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ لكفرهم به.

وعلى هذا، ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ محمدًا ﷺ، والقرآن، وكفروا بالله تعالى، وبالتالي ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ عواقب ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ويعرفون أنه الحق؛ إذا مسهم العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

ومع أن الله أنزل القرآن دليلًا لهم على وحدانيته وقدرته، وكان ينزل عليهم، ويدعوهم للإيمان حالًا بعد حال: فقد لفت أنظارهم إلى آيات كونية كثيرة تدعوهم إلى الإيمان - أيضًا - حالًا بعد حال. فمثلاً:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾

يعني: ﴿أ﴾ غفلوا و﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ وينظروا ﴿إِلَى﴾ ما في ﴿الْأَرْضِ﴾ ويعرفوا ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ أي: كثير المنافع، عظيم الفوائد، للناس والأنعام؟

إنهم لو لم يغفلوا، ونظروا إلى ما في الأرض، وعرفوا قدرتنا: لآمنوا!! حيث:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ نعم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الخلق ﴿لَآيَةً﴾ دالة على وحدانيته وقدرته سبحانه، وهي كافية لإيمانهم، ﴿وَلَكِنْ مَعَ وجود هذه الآية﴾ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿بسببها.﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ ﴿سبحانه﴾ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴿الغالب في انتقامه من الكفرة﴾ الرَّحِيمُ ﴿بمن آمن به، وتاب إليه وأناب.﴾

ولأن الرسول ﷺ كان كثير الهم لعدم إيمان الناس، حتى كاد ذلك يهلكه: فقد نبّهه ربه تبارك وتعالى التخفيف عن نفسه من ذلك، أكثر من مرة.

كما خفف عنه سبحانه: بذكر قصص إخوانه من النبيين، وما لاقوه من أقوامهم، في أكثر من سورة من سور القرآن، وقد فعل معه ذلك هنا: في سبع قصص من هذه. ففي القصة الأولى وهي: قصة موسى ﷺ، يقول له:

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠) قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ أَلَا يَنْقُوتُونَ ﴿١١﴾ يعني: ﴿وَلَا أَذْكَرُ﴾ إِذْ نَادَى رَبُّكَ ﴿يَا مُحَمَّدٌ﴾ ﴿مُوسَى﴾ ليلة سفره من مصر إلى الشام، ورأى: النار والشجرة، وقال له: ﴿أَنْ أَنْتَ أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ رسولاً لهم، ادعهم إلى الإيمان بالله، وعدم استعباد بني إسرائيل، وذبح أولادهم. ولكن مَنْ هؤلاء؟ إنهم ﴿قَوْمٌ فِرْعَوْنٌ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا عباد الله بالطغيان عليه.

﴿أَلَا يَنْقُوتُونَ﴾ الله، فيخافون عقابه.

ماذا فعل موسى ﷺ؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾

أدرك موسى ﷺ المهمة، وعرف عقباتها ومصاعبها، فذكرها؛ ليساعده الله في

إزالتها؛ لتنجح مهمته، وليبلغ رسالته، حيث: ﴿قَالَ﴾ يا ﴿رَبِّ﴾!! ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ في أني رسولك إليهم.

﴿و﴾ آلت إلى أن ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ بتكذيبهم هذا ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بما كُلِّفْتُ به من تبليغ، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ جبريل ﴿إِلَىٰ هَارُونَ﴾ أخي، ليكون نبيًا، يأتي معي ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ كَي سَحِكَ كَثِيرًا ﴿وَنَذْرُكَ كَثِيرًا﴾ [طه ٣١ - ٣٤] وننجح في مهمتنا.

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ بقتل أحدهم، وقد غفرت لي ذنبي، أما هم ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون﴾ قبل تبليغ الرسالة، فاحمني منهم.

فماذا قال له ربه سبحانه وتعالى؟

أولاً: أجب طلبه، وأرسل إلى هارون، وجعله نبيًا.

ثانيًا: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهما ﴿كَلَّا﴾ لا تخافا ﴿فَاذْهَبَا﴾ إليه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ورسالتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ وحافظون.

﴿فَأْتِيَا﴾ أي: فادخلا عليه فقولا له:

أولاً: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إليك.

ثانيًا: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا﴾ إلى الشام ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الذين يقيمون عندك، وتستعبدهم بمصر.

وبالفعل: ذهبا إلى فرعون، ودخلا عليه، وقالوا له ذلك.

ولمّا قالوا له ذلك!! وجّه الخطاب لموسى ﴿وَحْدَهُ﴾ وحده:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ آتِيًا﴾ ﴿فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى متعجباً ومستنكراً ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ عندنا، وفي قصورنا ﴿وَلِيدًا﴾ يا موسى ﴿وَلَيْسَتْ﴾ أقمت ﴿فِينَا﴾ عندنا، تنعم بنعمنا ﴿مَنْ عَمْرُكَ سِنِينَ﴾ !! أنسيت؟ ﴿و﴾ كذلك ﴿فَعَلْتَ فَعَلْتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل القبطي !! أنسيت؟ ﴿وَأَنْتَ﴾ الآن ﴿مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بنعمي عليك؛ حيث تجعل لك رباً غيري، ثم تطالبني بإخراج بني إسرائيل من مصر!!

ماذا كان رد موسى ﷺ؟

﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿٢٢﴾ اعترف موسى بقتل القبطي، وأنه كان خطأ منه بلا تعمّد؛ حيث قال: ﴿قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ﴾ المخطئين في ذلك، ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ﴾ إلى بلاد مدين ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلون ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ نبوة وعلماً ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وأرسلني إليك.

وكان هذا ردّاً منه ﷺ على موضوع القتل، وأما بالنسبة لموضوع التربية لموسى فقد قال ﷺ: ﴿وَتِلْكَ﴾ أي: تربيته عندك ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا﴾ أي: تمن بها ﴿عَلَيَّ﴾ وهي في الحقيقة: ليست مِنِّي منك ولا نعمة، بل الحقيقة هي: ﴿أَنْ﴾ أي: أنك ﴿عَبَدْتَ﴾ استعبدت ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وذبحت أبناءهم، وهذا سبب وجودي عندك.

ولم يستطع فرعون ردّاً، وانصرف إلى موضع آخر كان يتشاغل عن الخوض فيه، بما سبق من الكلام:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٣﴾

أي: مَنْ رب العالمين هذا، الذي تزعمان أنه أرسلكما؟ وهل هناك إله غيري؟

وأجاب موسى ﷺ عليه:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ: رب العالمين، هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

أي: خالق كل ذلك.

فأمنوا به، واخضعوا له ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ بآئه لا بد لهذا الكون من خالق.

وهنا، التفت فرعون إلى وزرائه وكبار مسؤوليه مستكراً، مستهزئاً ثم:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٢٥)

أي: قال لهم: ألا تسمعون هذا الهراء الذي يقوله موسى..؟

والتقط موسى ﷺ الخيط من فرعون، وخاطب مَنْ حول فرعون، يحرك فيهم ضمائرهم، ويستثير فيهم فطرتهم، حيث:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦)

أي: ﴿قَالَ﴾ موسى إن الذي أرسلني هو ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا كما يزعم فرعون، وهو ﴿رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين لم يدع فرعون أنه ربهم، فمن ربهم إذا؟

إنه الله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤] وليس فرعون، ألا تؤمنون به؟ وجد فرعون أن موسى ﷺ بدأ يُنفذ بدعوته إلى عقول الملأ من حوله فجئن جنونه، وبدأ يُوجِّه هو خطابه إليهم، ليغلق عليهم باب الإيمان بموسى:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧)

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ماذا حدث لكم؟ لم تسمعون إليه؟ إنه مجنون، فلا تستمعوا إليه.

ولم يأبه موسى ﷺ بما قال عنه فرعون، بل:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)

أي: استمر يخاطب الملأ من حول فرعون.. حيث ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] هذا، هو ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ولم يدع ذلك فرعون!! فمن ربهما وخالقهما إذا؟ إنه الله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء: ٢٤] وليس فرعون، ألا تؤمنون ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾!!؟

عندها، أغلق فرعون باب النقاش، وبدأ البدء في استعمال أسلوب الطغاة عندما يعجزون عن مواجهة الحق:

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩)

يعني: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسى ﷺ لا بد أن تؤمن بي فقط رباً لك، و ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ﴾ وجعلت لك ﴿إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ﴾ سجيناً ﴿مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ في سجونى، وهي كثيرة، وهذا منتهى التهديد، ممن يملك التنفيذ، ولكن موسى ﷺ لم يخف.

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠)

أي: ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ لفرعون: أتجعلني من المسجونين، حتى ﴿أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ يدل على بُبُوتِي، وإرسالي إليك من رب العالمين، وهو في غاية الوضوح؟

دفع الفضول وحب معرفة المجهول والرغبة في عجز موسى ﷺ عن ذلك فرعون إلى أن:

﴿قَالَ فَاتِّبِعْهُ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣١)

أي: هات دليلك إن كنت صادقاً.

وعلى الفور:

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٢) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (٣٣)

يعني: ﴿فَأَلْقَى﴾ موسى ﷺ ﴿عَصَاهُ﴾ من يمينه على الأرض أمام فرعون والحاضرين معه، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ فجأة: تتحول إلى ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ حية عظيمة، ضخمة، تتحرك.

ودُهِش الجميع!!

﴿وَنَزَعَ﴾ موسى ﷺ من جيبه، وأخرجها، أمام فرعون والحاضرين معه، ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ الأخرى: ﴿بَيْضَاءُ﴾ ذات شعاع منير ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ إليها وإلى الحية المندهمشين.

إنها آية بيّنة، بل آيتان واضحتان، فليؤمن فرعون ومن معه إذا.

إلا أن فرعون عاند، وخشي على من حوله أن يؤمنوا، حيث:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ ليصرفهم عن الإيمان بموسى ﷺ وربّه ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: موسى ﷺ ﴿لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾.

وما فعله أمامكم: هو من السحر فلا تنخدعوا به، ثم بدأ يخوفهم من موسى ﷺ على مصالحهم ومراكزهم، فقال: إنه ﴿يُرِيدُ أَنْ﴾ يتزعزّع الملّك منكم، ويستبدّ بالحكم دونكم، و ﴿يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾، ثم استشارهم على غير العادة، قائلاً ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟﴾

يقولون: أذلّ الحرّص أعناق الرجال.

نعم، حرّصهم على مصالحهم ومراكزهم ومكاسبهم: أعماهم عن صدق موسى، وجعلهم يشاركون فرعون عناده وطغيانه:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّينِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: اجعل لموسى وأخيه موعداً آخر، واجمع السحرة من أنحاء البلاد، ولتكن مبارزة بين الفريقين يظهر فيها كذب موسى أمام الناس أجمعين. واستجاب فرعون لهذا القول، وضرب الموعد المؤجل لموسى وأخيه، وجمع السحرة من أنحاء البلاد:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَفْغَلِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ﴿فَجُمِعَ﴾ أي: جمع فرعون ﴿السَّحَرَةَ﴾ لهذا اليوم المحدّد، وجمّع الناس، وكان في يوم عيد، يوم الزينة؛ أملاً في رؤية انتصار السحرة على هذا الساحر الجديد.

وجاء السحرة:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني: طلبوا ثمن انتصارهم، وأجر عملهم أولاً.

فقال فرعون لهم: لكم ما طلبتم، وزيادة هي: قربكم مني، وعطفي عليكم، وإنعامي إليكم، واهتمامي بكم، إذا انتصرتم على موسى، وأبطلتم سحره، وفضحتموه أمام جموع الناس.

ثم أتجه السحرة لموسى ﷺ - بعد ضمان المكافأة من فرعون - وقالوا لموسى ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ﴾ ما معك ﴿وَأِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ﴾ لما معنا ﴿الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: ألقوا ما تريدون من سحركم.

﴿فَالْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَالْقُوا جِبَاهَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ﴾ على الأرض، أمام موسى وفرعون والناس أجمعين.

ونظر إليها موسى، ﴿فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا سَعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى﴾ ﷺ ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ تتحول إلى حية عظيمة، صارت ﴿تَلَقَّفَ﴾ تبلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ ما يزورون به على الناس من حبالهم وعصيتهم.

وشاهد السحرة ذلك، وهم أهل العلم بهذا الفن وهذا الخداع، ولكن ما حدث من عصا موسى: ليس من عملهم، ولا هو بخداع، إنما هو حقيقة، رأوها بأعينهم.

إن موسى: ليس بساحر.

إن موسى: صادق.

إن موسى: نبي، لا بد من الإيمان به، والتصديق برسالته.

وكانت المفاجأة أمام الجميع:

﴿قَالَ قِيَّ السَّحَرَةُ سَاحِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾

آمن السحرة، الذين هم سلاح فرعون، في حربه لموسى.

حقًا، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

فهل، يؤمن إذا فرعون،؟ وهل تؤمن حاشيته؟ وينتهي الأمر، ويعم السلام!!

لا، إنه فرعون، إنه الطغيان، الذي توجه بالتهديد الشديد، والوعيد المخيف.

ولكن لا لموسى هذه المرة، بل لسحرته هو:

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ

تَعْمَلُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ فرعون لهم ثلاثة أشياء:

الأول: أنتم ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ أي: لموسى ﷺ ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهذا لم يحدث

في مملكتي من قبل، فكل شيء بأمرى وإذني فقط، وإيمانكم له بدون إذني

جريمة لا أغفرها لكم.

الثاني: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ وكنتم تلتقون به من خلفي، وبعيدًا عن

أجهزة رقابتي على الناس، وتخططون في هذه اللقاءات للإفساد بالبلاد، وإضرار

العباد، وقلب نظام الحكم، وانتزاع الملك مني، وهذه جريمة لا أغفرها لكم.

الثالث: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ما أنزله بكم من عذاب، وأفعله فيكم من عقاب.

ثم شرح هذا التهديد المجمل تفصيلًا؛ ليخيفهم، ويصرفهم عن إيمانهم بموسى ﷺ

وربه، حيث قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ اليد اليمنى مع الرجل

اليسرى، والعكس، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في جذوع النخل؛ لتكونوا عبرة لغيركم

مِمَّنْ تُسْأَلُ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَكُمْ.

إن الرجل جاد ويملك التنفيذ، ومع ذلك:

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضرر علينا؛ حيث ﴿إِنَّا﴾ لا نخلد في الدنيا، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بعد موتنا بأي شكل ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ راجعون، وسيجازينا من عنده.

﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ في كرمه وعفوه ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ السابقة، التي اقترفناها، خاصة: و ﴿أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من هذه الجموع الحاشدة، وأمام هذا الطاغوت الأكبر، ومع موسى ﷺ، هذا النبي الأعزل إلا من عناية الله.

وهكذا، انقلب السحر على الساحر، وانتصر الحق، وزهق الباطل. وهكذا، انفض الجميع، وانتهى يوم الزينة، وبقي فرعون على كفره وعناده، وصار موسى ﷺ: يدعو لربه، ويبلغ للناس رسالته. ومرت الأيام، وأراد الله أن يحقق النصر الكامل لعبده موسى ﷺ على فرعون الذي طغى.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يعني: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ﴾ أي: سر ليلاً ﴿بِعِبَادِي﴾ بني إسرائيل؛ لتخرج بهم من مصر، وتبعدهم عن ذل فرعون، ويكون ذلك الخروج ليلاً؛ حيث ﴿إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ مراقبون من فرعون.

إذ لا بد من الحركة؛ حتى يتخلصوا من الذل، ولو لم يتحركوا لن يتخلصوا.

وعلم فرعون بخروجهم، وعرف وجهتهم:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ﴾ والقرى من يجمع الناس، وجنود الاحتياط؛ ليلاحقوا موسى ﷺ ومن معه، ويأتون بهم ﴿حَاشِرِينَ﴾ لهم.

وقال فرعون يحمّس جنوده وأتباعه: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ الذين فرّوا مع موسى ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ طائفة ﴿فَلْيُلْوَ﴾ في العدد، ولن يفلتوا منا. ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ﴾ أي: وما كنا نهتم بهم إلا أنهم كانوا يغيظوننا، وهذه الفعلة زادتنا غيظًا على غيظ منهم.

﴿و﴾ على كل ﴿إِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾ واعون لهم، وهم تحت سيطرتنا.

وتحرّك فرعون بجيوشه لملاحقة موسى ومن معه:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتٍ وَعَيْنٍ﴾ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾

وبهذا التحرك، وبهذه الملاحقة من فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّتٍ﴾ بساتين ﴿وَعَيْنٍ﴾ وأنهار جارية، ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أموال طائلة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ يتنعمون فيه. ﴿كَذَلِكَ﴾ يكون الإخراج، ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم فيما قضينا ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: يرثها بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون. فرعون وجنوده على الفور ﴿اتَّبَعُوهُمْ﴾ أي: طاردونهم ﴿مُشْرِقِينَ﴾ جهة الشرق. وبالفعل لحقوا بهم، ورأوهم، واقتربوا منهم.

﴿فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

﴿فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانِ﴾ وقع أصحاب موسى في حيرة!! ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى﴾ وقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي: سيلحقوننا، ويكونون من خلفنا، والبحر من أمامنا، فماذا نفعل؟ ﴿قَالَ﴾ موسى بكل هدوء وثقة في نصر الله: ﴿قَالَ كَلَّا﴾ لن يلحقوكم، فلا تخافوهم؛ حيث ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ طريق النجاة منهم، والنصر عليهم.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ

الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَرْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

أي: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ في هذه اللحظة ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وهو
البحر الأحمر ﴿فَانْفَلَقَ﴾ الماء إلى اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: جزء منه
﴿كَالطُّورِ الْعَظِيمِ﴾ أي: الجبل الكبير الضخم العالي، ودخل موسى وبنو إسرائيل
إلى البحر، وساروا في هذه الطريق الجديدة، ورآهم فرعون وجنوده وخدع الغرور
الطاغية، وخدع قومه.

يقول تعالى: ﴿وَأَرْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ﴾ أي: قربناهم من الماء.

ودخلوا في البحر، وساروا في طريقه، ووصل موسى وقومه إلى الشط الآخر، وخرجوا
من البحر، وفرعون - ما يزال وقومه - في البحر؛ يلاحقون موسى ومن معه، وفجأة ينطبق
الماء، ويموج البحر!

﴿وَ﴾ هكذا ﴿أَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ لم يغرق منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ فرعون وقومه، لم ينج منهم أحد.

يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك ﴿لَآيَةً﴾ دالة على وحدانية الله
وقدرته، آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ حيث انتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ حيث نجا أوليائه.

القصة الثانية وهي: قصة إبراهيم عليه السلام، يقول ربنا تبارك وتعالى لمحمد ﷺ:

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقصص على قومك، وعلى كفار الدنيا كلها ﴿نَبَأٌ
إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: خبر إبراهيم عليه السلام؛ لتقتدي هذه الأمة به في إخلاصه، وثقته في الله.

وذلك: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ أي: وقت أن قال لأبيه وقومه ﴿مَا﴾ هذا الذي ﴿تَعْبُدُونَ﴾ منكراً عليهم عبادتهم للأصنام..؟
ويغيب أجابوه:

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عِكِيفِينَ﴾ (٧١)
أي: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ هي أصنام نعبدُها، ﴿فَنَظَلُّ لَهَا﴾ وسنظل على عبادتها ﴿عِكِيفِينَ﴾ أي: مستمرين.
واستدرجهم ليبين خطأهم، حيث:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٢) ﴿أَوْ يَفْعَلُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٣)
يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم هل هي تعقل؟ وهل هي تسمع؟ وهل هي تنفع أو تضر؟
ولم يستطيعوا الإجابة على أية واحدة من هذه التساؤلات بنعم، لذلك:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤)
أي: هي لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنفع، ولا تضر.
ولكن ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ﴾ كما نفعل، كانوا ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فقلدناهم.
فرد عليهم، حيث:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَأَنْتُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾
﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧)
يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ هذه الأصنام التي تعبدونها ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ الأولون: إنها لا تساوي شيئاً.
﴿فَأَنْتُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ فليفعلوا ما يشاؤون إن استطاعوا، ولن يستطيعوا، وأنا عدو لها،
أسخر منها، وأهزأ بها.

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فهو ربي، وأنا خاضع له، مطيع لأمره.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۖ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۖ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۖ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ۖ﴾

فهو الذي: خلقني، ويهديني، ويطعمني، ويسقيني، ويشفيني، ويميتني، ويحييني، ويغفر لي خطاياي، وهذه أوصاف ثمانية من جملة أوصاف كثيرة يتَّصف بها ربي، فهل تتصف ألهمتكم بمثل ذلك، أو بشيء منه؟

وهو بذكره هذه الأوصاف: قد أثنى على ربه، وبين - في الوقت ذاته - عجز ألهمتكم، وفساد عبادتهم لها.

ومع ذلك لم يدافعوا، بل لم ينطقوا فتوجَّه إلى ربه بالدعاء، بعد تقديم الشاء، حيث قال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ۖ وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ۖ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ۖ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۖ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ ۖ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ﴾

هذه دعوات ست سألها إبراهيم عليه السلام ربه:

الأولى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: علمًا، وقد كان.

الثانية: ﴿وَالْحَقِّنِي﴾ بعبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ في الدنيا والآخرة، وهم الأنبياء والمرسلون، وقد كان.

الثالثة: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ أي: ثناء حسنًا وذرية مسلمة ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾، وقد كان.

الرابعة: ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أي: من أهلها، الخالدين فيها، وسيكون بإذن الله.

الخامسة: ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِ﴾ أي: اجعله مسلمًا ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ الكافرين.

السادسة: ﴿وَلَا تُخْزِي﴾ بالفضيحة والعذاب أمام الخلق ﴿يَوْمَ يُعْتَوْنَ﴾ للحساب،
والجزاء ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ أَحَدًا مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بشيء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ﴾

يومئذ ﴿يَقْلِبُ سَلِيمٌ﴾ من الكفر والنفاق.
ثم يقول ربنا عز وجل عن هذا اليوم:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَتَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾
أي: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ قُرِبَتْ ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين أطاعوا ربهم في الدنيا.
﴿وَبُرِزَتِ﴾ أَظْهَرَتْ ﴿الْجَحِيمُ﴾ وهي النار ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الكافرين.
﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الكافرين؛ استهزاء!! ﴿أَتَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ
اللَّهِ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمُ﴾ الآن ويدفعون عنكم العذاب؟ ﴿أَوْ يَنْصِرُونَ﴾ هم، فيدفعون
عن أنفسهم؟.. ولا يجيبون!!
يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾
﴿فَكَبَّكُوا فِيهَا﴾ يعني فألقي بعضهم على بعض في النار، ﴿هُمْ﴾ أي: الأصنام
﴿وَالْغَاوُونَ﴾ أي: الكافرون.
﴿وَ﴾ ألقى معهم كذلك فيها ﴿جُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ وهم كل من أطاعه من الجن
والإنس ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

فإذا دخلوا فيها، وألقي بعضهم فوق بعض تخاصموا، نعم:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ دُسِّبَكُمْ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

﴿قَالُوا﴾ أي: الكفار ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ مع آلهتهم في جهنم ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا﴾ لقد كنا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ واضح!! ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
﴿وَالْحَقِيقَةُ﴾ أنه ﴿مَا أَضَلَّنَا﴾ هذا الضلال ﴿إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ أي: الشياطين، والكبار الذين اقتدنا بهم في هذا الضلال.

ثم قالوا بكل حسرة: واليوم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ يشفعون لنا عند ربنا في تخفيف العذاب عنا.

﴿وَلَا﴾ لنا أيضًا: من ﴿صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ كما نرى للمؤمنين كثرة الأصدقاء.
﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ عودة إلى الدنيا فنؤمن، ونعمل صالحًا ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لا يُعَذَّبُونَ، بل يدخلون الجنة ويُنعمون!! حقًا:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾
يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك ﴿لَآيَةً﴾ دالة على وحدانية الله وقدرته، آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي ينجي أوليائه.

القصة الثالثة وهي: قصة نوح عليه السلام، يقول العزيز الرحيم:

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِذُ ﴿١٠٦﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾

يعني: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ نوحًا، ولأنه واحد من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: فكأنهم كذبوا جميع المرسلين.

وذلك ﴿إِذْ﴾ أي: وقت أن ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْقِذُ﴾ الله، فتؤمنون به.
يا قوم ﴿إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٌ﴾ على تبليغكم ما أرسلت به إليكم ﴿فَاتَّقُوا﴾ غضب الله بإيمانكم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه.

﴿وَأَعْلَمُوا جَيْدًا أَنِّي ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وَهُوَ تَبْلِيغِي لَكُمْ ﴿مَنْ أَجْرِي﴾ أَخْذَهُ مِنْكُمْ ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ وَثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ

﴿فَاتَّقُوا﴾ غَضَبَ ﴿اللَّهِ﴾ وَأَمِنُوا بِهِ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ.

بَلَّغَ نُوحٌ قَوْمَهُ رِسَالَتَهُ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾.

فَهَلْ آمَنُوا، وَاتَّبَعُوهُ؟ كَلَّا، بَلْ:

﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾

أَي: ﴿قَالُوا﴾ لَهُ ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ﴾ وَتَتَّبِعُكَ ﴿و﴾ قَدْ ﴿اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ رِعَاعِ النَّاسِ وَفُقَرَاؤُهُمْ، طَمَعًا فِي الْعِزَّةِ وَالْمَالِ؟

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾

يَعْنِي: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُجِيبًا عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَيَهْدِفُونَ بِإِيمَانِهِمْ، وَيَخْفُونَ فِي صُدُورِهِمْ، وَلَيْسَ لِي مِنْهُمْ إِلَّا ظَاهِرُ أَمْرِهِمْ، وَأَمَّا مَا يَخْفُونَ مِنْ أَغْرَاضِ ﴿إِنْ حَسَابُهُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

وَلَنْ أَطْرُدَهُمْ مِنْ عِنْدِي كَمَا تَرِيدُونَ، فَهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا أَنَا﴾ أَبَدًا ﴿يَطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كَمَا أَنَّ مَهْمَتِي لَيْسَتْ الْحُكْمُ عَلَى النَّاسِ، وَلَا التَّحْكُمُ فِيهِمْ، وَمَا ﴿إِنْ أَنَا﴾ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿مُبْعُوثٌ لِإِنذَارِ الْمَكْلُفِينَ جَمِيعًا، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، ﴿مُبِينٌ﴾ أَي: وَاضِحٌ فِي مَهْمَتِي وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِي.

الْكَلَامُ وَاضِحٌ وَقَوِي، وَلَا رَدَّ عَنْهُمْ، وَلَا تَعْقِيبَ لَهُمْ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ فَالْمُنَاسِبُ: إِسْكَاتُهُ وَتَخْوِيفُهُ:

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْحُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١١٦﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ﴾ وتسكت عما تقول وتدعوننا إليه، وتجمع به حولك أراذل الناس: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ الذين نرجمهم بالحجارة، ونعذبهم حتى الموت.

وكانوا جادين، ولا غرابة في ذلك: فهي عادة الطغاة الظالمين، مع الدعاة الصالحين. وبعد أن طالّت دعوته لهم، واشتد تهديدهم له، مع إصرارهم على كفرهم، لجأ إلى ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾

دعا نوح عليه السلام ربه، حيث ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فيما بلغتهم به ودعوتهم إليه ﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

لذلك، ﴿فَأَفْنَحْ﴾ أي: فاحكم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ من عندك، ﴿وَ﴾ إذا كان حكمك عليهم بالعذاب لهم على كفرهم هذا ﴿نَجِّنِي﴾ منه أنا ﴿وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بك، الذين اتبعوني، وأطاعوا أمري.

واستجاب الله دعاءه، يقول الله تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ أي: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ آمن ﴿مَعَهُ﴾ من الهلاك ﴿فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء بالأمّعة وغيرها، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ بالطوفان ﴿بَعْدَ﴾ أي: بعد إنجائه ﴿الْبَاقِينَ﴾ الكافرين من قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك من خبر نوح عليه السلام ﴿لَآيَةً﴾ دالة على وحدانيتنا، وقدرتنا، آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي يُنْجِي أوليائه.

القصة الرابعة وهي: قصة عاد قوم هود عليه السلام، يقول سبحانه وتعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴿أَلَا نُنْفِقُ﴾ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٢٥) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢٧)

يعني: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ وهم قوم هود، كذبوا هوداً عليه السلام.

ولأنه واحد من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ فكانهم كذبوا - كذلك - جميع المرسلين.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ أي: قال لهم هود عليه السلام مبلغاً وناصحاً، وهو ما قاله نوح عليه السلام نفسه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٢٥) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٢٨) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١٠٩].

ثم زاد: ﴿أَلَا نُنْفِقُ﴾ الأمور الخاصة بهم، حيث قال لهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠)

زاد ثلاثة أشياء كانوا يفعلونها، وذكرهم بها:

الأول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ مكان مرتفع ﴿ءَايَةً﴾ بناءً ضخماً فخماً ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فيه وتلهون، وهذا لا يليق بكم، ولا يُقبل منكم.

الثاني: ﴿وَتَتَّخِذُونَ﴾ أي: تبنون لأنفسكم ﴿مَصَانِعَ﴾ قصوراً مشيدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ فيها، وتقيمون أبد الأبدين، وهذا لن يكون؛ حيث إنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الثالث: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ عاقبتهم أحداً ﴿بَطَشْتُمْ﴾ به ﴿جَبَّارِينَ﴾، إذا فيكم قسوة وغلظة وظلم للآخرين.

ولما ذكرهم بهذه الأشياء، وعظهم مرة أخرى، وزجرهم عن حب الدنيا القاتل، ورغبتهم في الآخرة ونعيمها، إذ قال لهم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٣١)

أي: ﴿فَاتَّقُوا﴾ غضب الله وآمنوا به، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه. ثم واصل هود عليه السلام هذا الوعظ لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم؛ ليكون وعظه أقرب لقبولهم، فقال:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٣٤﴾﴾ والمعنى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ غضب الله ﴿الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من النعم الكثيرة. ومنها أنه سبحانه ﴿أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ﴾ تتمتعون بها ﴿وَبَيْنَ﴾ تساعدكم في رعايتها وحفظها.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَنَّتِ﴾ بساتين ﴿وَعْيُونِ﴾ ينابيع وأنهار.

فهل اتعظوا؟ كلا، وكذلك: خوفهم بقوله:

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

يعني ﴿إِنِّي﴾ شفوق لكم حريص على مصالحكم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إذا أصررتكم على العناد والكفر ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة. وهنا نطقوا وتكلموا، مستهزئين:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ لهود عليه السلام ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ يستوي عندنا ﴿أَوَعَضْتَ﴾ لنا ﴿أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فلن نقبل كلامك، ولن نرجع عما نحن فيه. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: ما هذا الذي نحن عليه من الدين ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينهم من الآباء والأجداد، ونحن راضون به، باقون عليه.

﴿و﴾ كذلك ﴿مَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما تقول وتهذدنا به؛ حيث لا بعث ولا حساب.

وهذا هو قمة التكذيب والعناد الذي يستحق العقاب، لذلك يقول ربنا عز وجل:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

يعني: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وعاندوه في دعوته ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في الدنيا بالريح العقيم، كما يقول تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيِّبِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وهكذا انتهى أمرهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك من أمر عاد قوم هود ﴿لَايَةً﴾ دالة على وحدانيتنا وقدرتنا، آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي ينجي أولياءه.

القصة الخامسة وهي: قصة ثمود، قوم صالح عليه السلام، يقول الله تعالى:

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يعني: ﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ﴾ وهم قوم صالح صالحًا عليه السلام ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ولأنه واحد من المرسلين: فكأنهم كذبوا - كذلك - جميع المرسلين.

فقال لهم صالح عليه السلام: ما قاله نوح وهود عليهما السلام.

ثم زاد عليه الأمور التالية الخاصة بقومه، قال لهم:

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَلُنَا بِكُمْ مِنْكُمْ آمِنِينَ ﴿١٤٧﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٨﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٩﴾﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

الأول: هل تظنون أنكم ستتركون هكذا في دياركم آمنين من الموت، وأنه لا دار للجزاء

﴿أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَلُنَا بِكُمْ مِنْكُمْ آمِنِينَ﴾ في الدنيا ﴿آمِنِينَ﴾

ثم فسّر الذي هم فيه، والذي يخدعهم ويجعلهم آمنين، حيث قال: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿وَزُرُوعٍ﴾ كثيرة ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا﴾ ثمرها ﴿هَضِيمٌ﴾ لطيف جميل.

الثاني: طلب الاستعلاء في الدنيا ﴿وَتَنَحُّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ يُّوْتًا﴾ ضخمة رائعة، وأنتم بها ﴿فَرِهِينَ﴾ مترفين، عابثين.

ولمَّا ذَكَرْهُمْ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَعَظَّمَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَزَجَرَهُمْ عَنِ حُبِّ الدُّنْيَا الْقَاتِلِ، وَرَغَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا قَائِلًا لَهُمْ:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (١٥٠)

أي: ﴿فَاتَّقُوا﴾ غضب ﴿اللَّهُ﴾ وآمنوا به ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاركم عنه.

فهل اتعظوا؟ كلا، ولذلك نهاهم صراحة، عمّا هم فيه بقوله:

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٥١) ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (١٥٢)

يعني: اتقوا الله ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الذين يكثرون من ملذات الدنيا وشهواتها ﴿الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بعدم إيمانهم، وعدم طاعتهم لله، وعدم إيساعدهم للعباد ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فيها.

وهنا، نطقوا وتكلموا مستهزئين:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (١٥٤)

أي: ﴿قَالُوا﴾ له أمرين:

الأول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ وهم الذين سُحِّروا كثيرًا، حتّى غلب السحر على عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.

الثاني: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فكيف تكون نبيًّا؟ ولو أنك تريد أن نصدّقك ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ تدلنا على صدقك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ في دعوى الرسالة.

وهنا، سأل صالح ربه: أن يأتي لهم بآية وأجابه ربه، وكانت الناقة:

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١٥٥) ﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَإِنَّا حُكْمٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ (١٥٦)

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ وهي الآية التي طلبتموها دلالة على صدقي لكم، وهذه الناقة ﴿لَهَا شَرِبٌ﴾ أي: نصيب من الماء تشربه في يوم ﴿وَلَكُمْ شَرِبٌ﴾ في ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ لكم ولها، دون تزاحم على الماء بينكما، وهي: تعطيكم في يومها الذي تشرب فيه الماء، لبنًا يكفيكم.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿لَا تَمْسُوهَا يُسُوءُ﴾ من ضرب أو ذبح، وإلا ﴿فَيَأْخُذْكُمْ﴾ لو أذيتموها ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذابًا شديدًا.

وأقامت الناقة بينهم، وصاروا ينتفعون بها، ولمَّا طال عليهم الأمد، وحضر أشقاهم إليهم، وعبث بهم الشيطان أجمعوا أمرهم على قتلها وذبحها:

﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾

ثلاثة أشياء فعلوا: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ يعني: ذبحها بعضهم، ولكن برضى الجميع، ﴿فَاصْبَحُوا﴾ خائفين من العذاب ﴿نَدِيمِينَ﴾ على ذبحها، ولكن بلا إيمان، ولا توبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهي الصاعقة، التي أخذتهم ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَارٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ [الذاريات: ٤٤، ٤٥].

وهكذا انتهى أمرهم.

يعني: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك، من أمر قوم صالح ﴿لَآيَةً﴾ دالة على وحدانيتنا وقدرتنا، آية توصل من يعتبر بها إلى الإيمان والهداية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٥٩﴾

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ينتقم من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي ينجي أوليائه.

القصة السادسة وهي: قصة لوط عليه السلام، يقول الله سبحانه:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِذُ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾

هو نفس الذي كان مع نوح وهود وصالح عليهم السلام.

ولكن زاد عليه هذا الخاص بهم، حيث قال لهم:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

يعني: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ وتطؤونهم دون الإناث، وأنتم وحدكم تفعلون هذه الفاحشة، دون غيركم ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون - في الوقت ذاته - وطاء ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ في الحلال، هذه فاحشة كبرى.

لا، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ تعدّيتم حدود الفواحش، وتجرّأتم على ما أحلّ لكم ربكم، وما حرّم عليكم.

فهل اتعظوا؟ كلا بل نطقوا، وتكلموا مهديين.

﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ محذرين ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ﴾ عن كلامك هذا، وتسكت ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من ديارنا، طردًا لك.

وأجابهم قائلاً:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يعني: حتى ولو أسكتموني، أو أخرجتموني، ف ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ﴾ الفاحش هذا ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ المبغضين الكارهين.

ثم اتجه إلى ربه عز وجل بقوله:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٩)

أي: يا ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من عقاب ﴿مَّا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا وفي الآخرة.
وأجاب الله عز وجل دعاءه سريعاً، حيث قال تعالى:

﴿فَنَجِّنُهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾

يعني: ﴿فَنَجِّنُهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ من الهلاك والدمار ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ وهي امرأته، كانت ﴿فِي الْغَدِيرِ﴾ الهالكين؛ حيث كانت راضية بهذه المعصية، غير منكرة لها.
﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ تدميرًا كاملاً شاملاً.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كذلك ﴿مَطَرًا﴾ من حجارة، زيادة على جعل عالي بلادهم سافلها. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ هذا المطر.
يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾
وهكذا انتهى أمرهم.

القصة السابعة وهي: قصة شعيب عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تُنْقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾

وهو نفس الذي كان من: نوح، وهود، وصالح، ولوط، عليهم السلام.

ولكنه زاد عليه ما هو خاص بهم، حيث قال:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (١٨٢) وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

يعني: طلب منهم هذه الأمور:

أولاً: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ وأتموه لصاحبه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ المغتصبين حق الغير ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ بالميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ العادل.
ثانياً: ﴿وَلَا تَبْخُسُوا﴾ بصفة عامة ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ المادية والمعنوية.
ثالثاً: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وتبالغوا في إفسادها، حال كونكم ﴿مُفْسِدِينَ﴾ بأية صورة من صور الفساد.
رابعاً: ﴿وَأَتَقُوا﴾ الله ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وخلق كذلك ﴿الْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقة السابقين عليكم.

فهل اتعظوا؟ كلا بل نطقوا مكذبين، مهديين، شأن الطغاة الظالمين:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ (١٨٥) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (١٨٦) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) أي: ﴿قَالُوا﴾ له عدة أمور:

الأمر الأول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ وهم الذين سحروا كثيراً، حتى غلب السحر على عقولهم، فأصبحوا لا يدرون ما يقولون.
الأمر الثاني: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فكيف تكون نبياً؟
الأمر الثالث: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ فيما تدعيه؛ لِتَرَأْسَ علينا.
الأمر الرابع: أَنْتَ تهدد بالعذاب ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ قطعاً ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ تهلكنا بها ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أنك نبي مرسل.

ولمَّا سمع شعيب منهم ذلك، فوض الأمر لله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّيَّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨٨)

أي: إن ربي عالم بعنادكم، ويجازيكم عليه، وينصرني عليكم، وواضح أنه لجوء منه إلى الله، وتسليم الأمر إليه. يقول الله تعالى:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٩)

يعني: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وعاندوه في دعوته.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ فأهلكهم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

حيث يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الرمل، فأخذ بأنفاسهم، لا ينفعهم ظل ولا ماء، فاضطروا إلى أن خرجوا من بيوتهم، فأظلمت سحابة، وجدوا لها بردا ونسيما، فاجتمعوا تحتها؛ فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا، وهكذا انتهى أمرهم.

يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٩١)

بهذه الآيات الكريمة انتهت قصة شعيب عليه السلام بل انتهت القصص السبع التي قصها الله على حبيبا محمد ﷺ؛ ليثبت بها، ويواسيه على ما يلاقيه من قومه من خلالها، ويؤازر المؤمنين في مواقفهم القوية في مواجهة الباطل وأعوانه بدروسها.

وبعد هذا القصص، يكون حديث السورة عن القرآن الكريم، والتحذير من الإعراض عنه وعن الرسول ﷺ، والتحذير من العصيان له، يقول عز من قائل:

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٩٢) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ (١٩٤) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (١٩٥)

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: القرآن الذي وردت فيه هذه القصص ﴿لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وليس من تأليف محمد، بل ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ إليه من عند الله تعالى ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

وذلك النزول به كان ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ﴾ بما فيه ﴿مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ المخوفين من عذاب الله، وقد نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: فصيح، كامل، شامل؛ لتنفع به الحجة، وينقطع به العذر.

أَيْضًا.. ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٩٦)

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: صفة القرآن، وأنه تنزيل من رب العالمين، أو هذا القصص ﴿لَفِي﴾ أي: موجود في ﴿زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ كتب الأنبياء السابقين.

وهذا دليل على نبوة محمد ﷺ؛ حيث لم يسبق أن تعلم أو عرف ما في هذه الكتب السابقة.

هذا، ولأن صفة القرآن كانت في كتب السابقين، فقد علمها علماء بني إسرائيل، وفي هذا دلالة على نبوته ﷺ، لذلك يقول تعالى موبخًا للكفار:

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٩٧)

يعني: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ﴾ على صدق نبوته ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ﴾ بصفته ﴿عُلَمَوُا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فيؤمنوا به، ويصدقوا محمدًا في رسالته؟

يا سبحان الله، نزل القرآن عليهم بلسان عربي فصيح، واضح، معجز!! وظهر لهم أن علماء بني إسرائيل كانوا يعلمون وصفه قبل نزوله على محمد ﷺ، كورقة بن نوفل، وعبد الله بن سلام، وغيرهم من أهل الكتاب، حتى يومنا هذا، ومع ذلك لم يؤمن هؤلاء الكفار.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ (١٩٨) ﴿فَفَرَّاهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٩)

يعني: ﴿و﴾ حتى ﴿لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يعرفون العربية ﴿فَفَرَّاهُ﴾ هذا البعض عليهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لعدم فهمهم لما يقول.

والمعنى: أنهم فهموا القرآن، أو لم يفهموه ما هم بمؤمنين.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠٠) ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

﴿فِيَاتِهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٠١) ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ (٢٠٢)

أي: ﴿كَذَلِكَ﴾ العناد ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ أي: الكفر، وأدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين من أعدائك الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويصدقون ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا﴾ بأعينهم، ويشهدوا ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ينزل بهم ﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَقُولُوا﴾ ساعتها ﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي: تُعْطَى مهلة؛ لنعمل صالحًا..؟

عجيب أمر هؤلاء الكفار، الذين يطلبون المهلة الآن! إنهم كانوا يستعجلون العذاب في الدنيا، لذلك يقول المولى عز وجل:

﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهَا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يعني: ﴿أَفِعَذَابِنَا﴾ حين يرون العذاب الأليم ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾؟ أبدًا، ولكنهم يطلبون المهلة، ويقولون هل نحن منظرون!!

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أخبرني ﴿إِنْ﴾ أجبناهم إلى ما يطلبون من المهلة، و ﴿مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾!!

﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ﴾ بعدها ﴿مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ به من العذاب.
﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ وما منع هذا العذاب ﴿مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ به، من بريق الدنيا، ومتاعها، وزخرفها.

﴿و﴾ هكذا، ﴿مَا أَهْلَكْنَا﴾ بالعذاب ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كفر أهلها ﴿إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾ أرسلناهم؛ يخوفونهم من غضب الله وعذابه.
وذلك ﴿ذَكَرْنَاهَا﴾ وموعظة لها ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في إهلاكهم بعد إنذارهم.

هذا، ولَمَّا قال بعض الكفار: إن هذا القرآن من جنس ما تنتزل به الشياطين، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

أي: إن القرآن من عند الله ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ كما يدعي الكفار، وذلك لثلاثة أسباب:

السبب الأول: أنه ﴿مَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ وما يصح منهم؛ لأنه هداية، وهم أهل فساد ولا يحبون الهداية.

السبب الثاني: ﴿مَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك حيث إنهم، وهذا هو:
السبب الثالث: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ بقدرة الله.

وما دام قد ثبت بهذا الشكل أن القرآن من عند الله، وليس مما تنزلت به الشياطين.

﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ
(٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾

وفي هذه الآيات يأمر ربنا محمدًا ﷺ بثلاثة أشياء:

أولها: ﴿فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ومن المحال أن يفعل محمد ذلك!!
ولكنه دعوة لزيادة الإخلاص وتربية لغيره ﷺ، وإلا ﴿فَتَكُونَ﴾ وكل من
يفعل ذلك ﴿مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾.

ثانيها: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وكان ذلك في بدء الدعوة.

ثالثها: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وألن جانبك، وأحسن معاملتك ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما من كفر، فالأدب معه يختلف باختلاف الأحوال.

ثم يقول له ربه:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي
بَرَنَّا حِينَ نَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

أي: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: عشيرتك وأهلك الأقربون، ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّي بَرِيءٌ
مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة غير الله ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في جميع أمورك ﴿عَلَى الْعَزِيزِ﴾ الذي
يقهر أعداءك بعزته وسلطانه ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي ينصرك عليهم برحمته ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾
في جوف الليل ﴿حِينَ نَقُومُ﴾ للتهجير، ﴿و﴾ يرى ﴿تَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ بالصلاة
﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقول ويقولون ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تفعل ويفعلون،
الذي يجازيك خيراً، ويجازي أعداءك شراً.

يا محمد، إنهم يقولون تنزل الشياطين عليك بالقرآن؟ اسمع، ويسمعون..

﴿هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ
السَّمْعَ وَكَثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ يعني: هل أخبركم ﴿عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ حقيقة؟ إنها: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذاب ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر، مثل مسيلمة وسلمان رشدي، وغيرهما، حيث إنهم أي: الشياطين ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ رغبة منهم في معرفة أخبار السماء ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ فيما يدعونه.

إذن، ليس هذا القرآن مما تنزلت به الشياطين كما يدعون، ولا من باب الشعر كذلك، ولا من قول الشعراء، يقول الله سبحانه:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

محمد ﷺ يتبعه المهتدون ﴿و﴾ أما ﴿الشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ الضالون بدليل ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الكلام وأنواعه، حقًا كان أو باطلاً ﴿يَهِيمُونَ﴾ يخوضون، دون تفرقة بين النافع والضار، والصواب والخطأ.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ كذلك ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ومحمد ﷺ بشهادة أعدائه يفعل ما يقول، ولكن ليس كل الشعراء كذلك، يقول تعالى ويستثنى منهم:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْنَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

إذا وُصف الشاعر بهذه الصفات الأربع، فليس هو ممن يتبعهم الغاؤون:

الوصف الأول: الإيمان ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

الوصف الثاني: والعمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الوصف الثالث: ذكر الله ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الوصف الرابع: الانتصار ممن ظلمهم ﴿وَانْنَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

﴿و﴾ بعد، ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم وأعرضوا عن الاهتداء بالقرآن، وبما في هذه السورة من آيات، ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ سَيُؤْتِي﴾ إليه ألا فلينبه العقلاء!!